القصص

عمامة الأفندى

للأستاذ محمد سعيد العريان

طال بنا انتظار صاحبنا (المأذون) فى هذه الليلة حتى دقت العاشرة ولم يجىء ، وكنا نرقب مَقْدمه علينا كلّ مساء رِقْبة المشتاق ، فما تخلّف منذ عرفناه ليلة ، وإنه ليقدم فيحلّ البشرُ ويستخفّنا السرور ، سرورُ النفس بدعابته ، وسرور المعدة بحَلْواه ؛ فقلما كان يوافينا إلا ومعه هدية من عُرس نتوزّعها بيننا . ولم يكن لمقدمه ميعاد ، فانه لَفى تجوال دائم ، يتأبّط دفتره من دار الى دار ، رسولَ سلام وحب ، أو رسول فرقة وقطيعة !

وتوزّعتْنا الظنون من غيبته ، وحسبناه قد أصاب الليلة حظاً من عرس ، فبخل علينا بحلواه ومرق الى الدار ؛ فما كنا لنتركه حين يقدم علينا إلا فارغَ الجيب من الحلوى وغير الحلوى مما يجمع من الأعراس ، وما كان ليتركنا إلا فارغةً رءوسنا من كثرة ما نضحك من دعابته وهزله . وإنه لشاب ضُحَكَة[1] جرىء على النكتة ، ليس فيه زمانةُ الشيوخ من أهل هذه الطائفة

وتهيأنا لاستقباله بفيض من النكات المصنوعة ، لعلنا ننال منه لقاءَ ما كان يُشبعنا كل مساء من عبث ودعابة ؛ فقد كان له فى كل ليلة هدف من الجلساء يتندّر عليه ويتخذه ضُحْكَة[2] فما ينصرف عنه إلا مُغْضَباً ليترضّاه فى غد !

وجاء بعد قليل ، فحيّا وجلس ، ولكنه كان عابساً مبهوراً مايكاد جفنه يطرف ؛ فخسِبنا من وراء مظهره العابس نكتة مبتكرة ، فما عهدناه يألم فى الحياة لشىء ، وإن الهموم لتصطرع عن عينه وشماله

وهممنا به نتناوله بما أعددنا له من عبث ، فاذا كلماتنا تتساقط حواليه ولا تصيبه ، وظلّ على حاله من الغضب والعبوس وسرّت الينا نفسُه ، وتقمّصَنا مما به روح الكآبة والوحشة ؛ فأمسكنا عن الحديث لحظات

ورفع الشيخ رأسه بعد هنيهة ، وتحركت شفتاه بكلام ، فتقصّفْنا عليه نستمع لما يقول

وسأل : « ما لديكم من أنباء صاحبنا عاطف ؟ »

قلنا : « لقد انقطع عن نادينا من زمان بعيد ، فلعله على شُغْل يبعض شأنه ؛ وإن لذّاتِ الحياة لحبيبةٌ اليه ، فما نراه قد منعه لقاءَنا إلا لهوٌ آثره علينا ، أو لذةٌ دعته فلبّاها ؛ أو لعله يتفيأ من دنياه الجديدة ظلالَ الحب والسعادة »

قال : « بل دنياه الجديدة ، ولكن ليس فيها من السعادة والحب ولا ظلّهما ؛ ولكنْ مكابدةُ الأحزان ، وألم الوحدة ، ومشقة الحرمان ، وظلام اليأس ! »

ورنّت كلماته فى أذنى رنيناً مفزعاً سمعت صداه فى قلبى ؛ فقد توثّقت صلتى بعاطف صبيّاً وغلاماً وشاباً ؛ فأىُّ أمل كان يجيش فى تلك النفس ، وأىّ روح كان يحمل ذلك الجسد ، وأىّ حيوية كانت تصطرع من ذلك الشباب !

فما كربنى كربٌ ونظرته إلا عادت الحياة فى عينىّ باسمة نضرة ، وما أهمّنى همٌ فلقيتُه إلا تعلمت منه فلسفة الرضى بما هو كائن ، وكان من بهائه وإشراق طلعته ، الى كماله وعفّته — كأنه فتاةٌ مستحيية . . .

وأخذ الشيخ يقصّ علينا من نبئه ، ونحن نستمع اليه فى صمت

* * *

كان عاطف على ما انبسط له من النعمة ، وما اتفق له من حسن الرأى — لا يؤمل فى الزواج إلا من فتاة ذاتِ مال . ولقد كان عجيباً عندنا أن يكون على هذا الرأى ، وهو مَن نعرف من شباب الجيل الجديد ؛ ولكنا لم نكن لنستطيع على ما نعرف فى مهاجة رأيه — أن نصرفه عن بعض ما كان يعتقد . وراح فى سبيل غايته يبحث عن الزوجة الغنية على أبواب المجلس الحسبى . . . !

(١) الضحكة (بضم ففتح) الكثير الضحك (٢) والضحكة (بضم فسكون) الذى تضحك منه

وجدها بعد إذ جدّ فأعيا ؛ ولم تكن جميلة ، ولكنها كانت بعيدة من الدمامة ؛ وكانت جاهلة ، ولكنها من بنات الحاضرة . وقد مات أبواها وخلّفا لها قصراً وضيعة ، وأخاً يقوم عليها وعلى الضيعة جميعاً

واستوثق الفتى من غنى صاحبته ، فأقبل يخطبها الى أخيها وقد اجتمعت له الأسباب . وأدّى المهر ؛ مهرَ الضيعة والقصر والعروس . . . وعُقد له على فتاته

لقد غبطناه يومئذ على النعمة ، نعمةِ الثروة والجاه والزواج ، وما عنانا كم دفع وكم أنفق ؛ فقد كنا على ثقة بأن حبّته مردودة اليه سبعَ سنابل فى كل سنبلة مائةُ حبة . ورحنا نتهم أنفسنا بفساد النظر وأفَن الرأى وسوء التدبير

ومضى أسبوع ، وشهر ، وأشهر ، وأوشك العام أن ينتصف . وعاطف متهلّل الوجه ، ضاحك السنّ ، يحلم بالغد القريب يوم تُزَفّ زوجته اليه ؛ وتُزف ثروتها الى خزانته . . . وسعى الى صهره يستعجله ، فاذا هو يبسط له المَدَى ، ويفسح الأجل ، ويستشفع بالتقاليد . . .

وعاد الفتى إلى نفسه يطمئنها ويترضّاها . وما عليه من ذاك ؟ أليست ستُزَفّ اليه لامحالة فى يوم قريب أو بعيد ؟ بلى ؟ وإنها لزوجته ، مافى ذلك شك ولا إنكار ؛ فلا عليه أن ينتظر !

ودار دولاب الزمن فأتمّ دورة ، وراح الفتى يستنجز صهره الوعد ، فقابله وهو يبتسم ، وبسط له وجهه ومجلسه ، وأخذ يتنقّل به فى الحديث من فنّ الى فنّ حتى زالت وحشته ، وأنِسَتْ روحه ؛ فودّعه ولم يظفر بجواب . . . !

وتولّت الأيام بعضُها فى أعقاب بعض ، وتصرّمت الأشهر شهراً فى أذيال شهر ؛ ومازال صاحبنا يراوح بين جنبيه فى فراش الوحدة ، وعروسه هناك من دونها الأبواب والحارس العتيد !

وملّ الفتى مُقامه ، وضاقت به نفسه ؛ فراح يطلب التعجيل فى الزفاف فيُلحف ، وأخو الفتاة فى هدوء المطمئن يُمدّ له الأجل ويعتذر بالظروف !

— « أىّ ظروف ؟ لقد مرّ عامان مذ تزوّجتُ ، فمن لى على الحياة أحتمل بردَها وحَرورَها وحدى ، وما أنا عَزَبٌ فأنطلقَ حيث أشاء ، ولا زوجٌ فآوىَ إلى بيتى ألتمس هدوء النفس وبرد الراحة ! »

وعاد الأخ يعتذر ويجدّد الميعاد ، وهو يربت على كتف الزوج الغاضب

وخرج عاطف من الدار والقِدْرُ تغلى فى رأسه ؛ لقد ابتدأ يعرف ما هنالك ، ولكنه لم يجرؤ على التصريح . أيكون ذلك من قوانين البر ، أهو كذلك ناموس الرحمة والعدل ؛ أيعضل الأخ أخته فيحرمها الاستمتاع بالحياة من أجل المال ، من أجل مالها الذى يخشى أن يفلت من يده إلى الزوج يتصرف فيه كيف يشاء ؛ وما يضيره من ذلك وإن له لَضِعْفَ ما تملك أخته المسكينة ، وإن ماله ليكفيه ويفضل عن حاجته ، ولكن . . . ولكن أين هو الفضل منذ سنوات ؟

لكأنما هو مستخدم على أن يجمع المال فيبدده هنا وهناك ، وما له من ذلك إلا اللقمة ، وما تمتاز كثيراً من لقمة الفقير ؛ وإلا الثوب ، وإنك لترى الثياب الغالية يُزهى بها من هم دونه من عامة الناس ! أما فضل المال فله مصرف من وراء ذلك : على المرأة والكأس والقمار . . .

وهمّ عاطف أن يعود فيصرخ فى وجهه بما عرف من أمره وسوء تدبيره ، ولكنه كظم الغيظ على ألم وضيق

وتلاقيا بعد أيام ، وكانت القدر ما تزال تغلى ؛ فملأ الزبد يترشش مُصرّحاً عن غضب مغيظ . . . وافترق الرجلان على خصومة وعداء . . . !

* * *

ودق عاطف باب المحكمة لعلها أن تحمل زوجته على (الطاعة)

أين هى المسكينة ؟ وعلى طاعة هى أم على عصيان ؟ إنه لم يرها إلا مرسومة فى ورقة ، أتراها فى الأحياء ، أم هى من وراء جدران سجنها جثة بلا روح ، وجسد بلا عاطفة ، وطاعة بلا ارادة ، ومعِدة بلا وجدان . . . !

ويحك أيتها المسكينة ! أتشعرين أنك فى الأحياء ؟ لعل فى الموتى من هم أقرب منك إلى الحياة ، لأنهم يعيشون من عواطف أهليهم فى عواطف حية وحب مشبوب . . . !

وفى المحكمة رأى الفتى عروسه لأول ما راها ، وقد جاءت تسعى عن أمر أخيها تطالب زوجها بالنفقة والكسوة والمأوى ! بالسخرية ! أضاق بها أخوها طاعمة كاسية من مالها عنده ! فيدفعها الى القضاء تلتمس القوت واللباس . . . !

وكان بينهما ما يكون دائماً بين كل زوجين يعرفان المحكمة الشرعية ؛ فى كل يوم بينهما (جلسة) للقضاء ، وكل منهما يفتن فى الكيد والاغاظة ، والغالب منهما من ينال من صاحبه من غير عائدة عليه ؛ والمال يتسرب من بين أيديهما للمحامى

والكاتب ورسوم الدعاوى وأجر الشهود ... !

وامتدّت بينهما الفتنة ، ولجّت بهما الخصومة ، وطالت إجراءات التقاضي ، وتصرمت سنوات . وأخذ الزوج المسكين يبيع ما يملك قطعةً بعد قطعة ، وفاء لنفقة الزوجة ونفقة القضاء ؛ وأوشك الزوج الذي راح يطلب الغنى من تحت أقدام امرأة — أن تصفر يداه ... !

واصطلحا في النهاية على الطلاق ... !

* * *

قال المأذون :

« وقلت للفتاة : أأنت على نية إبرائه رغبة في الطلاق ؟

وزاغت نظرة الضحية العذراء من هنا الى هناك ، حتى استقرت على الرجل الجالس هناك ، ثم نكست رأسها. ولم تجب

قلت : إنك إنما تفصلين في أمر مستقبلك ، فليس هنا لأحد عليك سلطان

فحدّقت فيّ طويلاً كأنما تلتمس المعونة ، ثم حولت النظر الى أخيها فاذا في عينيه كلام طويل ، فأطرقت وهي تقول في همس : « نعم لقد أبرأته ... ! »

والتفتّ إليها الرجلُ يصوّب النظر ويصعّده ، ثم نطق بالكلمة الفاصلة ... !

وتحوّلتُ إلى الرجل فأنكرته ، وأقسم لكأنما لم أكن أعرفه من قبل ، وما كان في بالي أنه صديق لعاطف . لقد انطفأ بريق عينيه كأنما ينظر من خلف زجاجة ؛ وغاض ماء الشباب من وجهه ، فما تراه إلا كوردة الخريف ؛ وقد أطلق لحيته ، كأنما تركتْ لطماتُ القدر في عارضيه سوادَ حظه ؛ وكانت في يده سبحة ، أحسَبُه كان يحصي عليها همومَه وأحزانَ نفسه ؛ وما رأيت شيئاً أبيض — فيما رأيت — إلا عمامتَه ... ! »

قلنا : « عمامته ؟ .. عهدُنا به لا يلبس إلا الطربوش ... ! »

قال : « نعم عمامته ، فاستأنوا ... قلت له : ما فعلتْ بك الأيام يا عاطف ؟

قال : ذاك ما ترى . ولقد أقسمتُ أن أفرغ لله ، فلم تعدْ لي في الزواج إربة ، ولن تراني إلا بين المسجد والبيت حتى ألقى ربي ! حسبي ، حسبي ما لقيتُ من دنياي ... ! وانكبّ على سبحته يتمتم والحبات تتساقط في الخيط واحدةً فوق واحدة ، ورأسه يهتز كأنه يقول : كذلك تتعاقب الأيام كما تتساقط الحبات حبة وراء حبة ، حتى تكون النهاية ، حتى يكون الموت ... !

وما وجدت عندي جواباً إلا أن أتحول وأدعه حيث جلس يداعب سبحته . أتراه كان يذكر الله ، أم يسب الدنيا ... ! »

لقد راح المسكين يبحث عن الزوجة الغنية ليضاعف بها ماله ، فآب فقيراً من مالها ومن ماله ؛ وذهب يسعى لأن يضاعف بالزواج مسراتِ الشباب ، فردّه الزواجُ شيخاً في الثلاثين ! ؟

محمد سعيد العريان

كستور الشتاء

شركة مصر للغزل والنسيج

تتشرف بأن تعلن حضرات مواطنيها الكرام أنها أنتجت من

القطن المصري الخالص

كستوراً فاخراً

لموسم الشتاء القادم

أطلبوا بالحاح من

التجار الذين تعاملونهم تقديم كستور الشركة أولاً وأصنافه من

(١) الكستور الفاخر (أبيض) (٢) كستور النيل (مقلم)

(٣) كستور فانله (مقلم) (٤) كستور بيكه منقوش (أبيض)